

الوثيقة الإباضية في الحوار

إن موضوع الحوار من القضايا المحورية التي تستحق أن تجرى حولها الدراسات المتعددة وأن تكون ثقافة سائدة ، في ظل ثقافة الخلاف التي تطغى على أكثر الأطروحات في شؤون متعددة ، لا سيما قضايا الدين والعقيدة والفكر والتربية ، فهي عوامل أساسية محركة للمجتمعات ، وعلى ضوءها تصاغ نظريات وتبنى حقائق وتصدر أحكام..

ونحن نرى جميعا كيف تصل الخصومات بالمتحاورين في أحيان كثيرة إلى الإقصاء في صورته الصعبة وصوته الصاخب ، وتحدد في أحيان أيضا مصائر الناس وصلاتهم الخطيرة بالله سبحانه وتعالى وبالدين فضلا عن المصير الأخرى ، كما تحدد علاقاتهم الاجتماعية العامة بما فيها من علاقات الأخوة الإسلامية والرحم والجوار والصحة ، والعلاقات الخاصة بما فيها من علاقات الأسرة بزواياها المتعددة، الزوجية والأبوة والأمومة والبنوة ، بل حتى العلاقات المالية يتم تناولها وإصدار الأحكام بشأنها، كل ذلك في شيوخ ثقافة الصراع..

هذه العلاقات علاقات إنسانية مقدسة إسلاميا ، ومكفولة عرفا ، وقد تبنتها في الأعم الأغلب منظمات حقوق الإنسان ، وسنت بحقها قوانين وشرعت عقوبات ، وقد فصل فيها القرآن الكريم ولم يتركها للأفهام والأذواق ، وجرت سيرة الرسول الكريم العطرة على الحفاظ عليها والتأكيد على ضرورة الالتزام بها ، وجعلها ضمن المنظومة البشرية لوجود الإنسان في صراعه مع الحياة ..

.....

واقع :

في تاريخ الناس ، بما فيه تاريخ المذاهب الإسلامية ، خلافات وصراعات فكرية غالية في القسوة ، تغيب عنها قيم مقدسة في الإسلام لصالح الانتصار للرؤى الخاصة بها وكسب المواقف ! وفي حياة الناس العامة أمثلة للخلاف الحاد والمسلح بالتهم والقذائف والتشنيع.

بعد أن دعيت للحديث في هذا الموضوع عدت إلى عدد من المواقع الحوارية لمختلف الأطياف الإسلامية ، لأطالعها من جديد. الصورة في كل هذه المشاهد قاتمة جدا ، والخلاف فيها على أشده!

تابعت عددا من قضايا الخلاف العلمي والخلافات الشخصية ، ودخلت في بعضها لتقريب وجهات النظر ومحاولة الإصلاح ، وقلما يتم وعي المختلفين بالخلاف وضرورة الوفاق أو التوقف عن زيادة حدة الشقاق ، فوقفت على عجائب النفس البشرية في تعاملها مع الأشياء والأشخاص ، وشكل ذلك لدي قناعات معينة ، من أهمها الحاجة الماسة إلى تجديد الحديث عن المنهج القرآني للحوار وما يسمى بأدب الاختلاف . لكن أجمل ما في الأمر لي شخصيا فهم نفسيات الناس وأبعاد الاختلاف بين بعضهم.

هنا تتجلى الصورة القرآنية التي تجسد تجليا من تجليات المجتمع الإنساني في مدينته الفاضلة ، وذلك عند الحديث عن الوحدة "إن هذه أمتكم أمة واحدة" ، ورص الصف "كأنهم بنيان مرصوص" ، وضرورة الاعتصام الجماعي بحبل الله المتين "واعتصموا بحبل الله جميعا" ، وعدم التفرق "ولا تفرقوا" ، والنهي عن التنازع "ولا تنازعوا" الذي يؤدي حتما إلى الفشل "فتفشلوا" ويؤدي إلى فقدان الهيبة "وتذهب ريحكم" ، وضرورة التركيز على اللحمة الإيمانية "إنما المؤمنون إخوة" ، وضرورة الإصلاح "فأصلحوا بين أخويكم" ، وعد كل ذلك من مقتضيات تقوى المؤمن لربه :- "يا أيها الذين آمنوا اتقوا

الله حق ثقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . - "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون."

يغلب على مشاهد الخلاف عدد من التصورات المنطبعة في العقل اللاواعي جراء البيئة التي تعيشها عقول الكثيرين حيث الاختلاف الحتمي بين البشر ، مشحونا بعوامل مصطنعة وهمية تحرك الإحساس إلى ممارسات إقصائية تصل إلى أبعد مدى في بعض المواقف .

وباستعراض سريع لحوارات المختلفين تظهر صورة تعكس حالة فقدان الاتزان في الشخوص والأفكار بشمولية ذلك للمنهج العلمي ، والجانب المعرفي ، والحس الوجداني ، ولغة الحوار ، بما يمكن تلخيصه فيما يلي:

1- في الجانب المنهجي : التركيز على نقاط الاختلاف القليلة وطمس نقاط الالتقاء الكثيرة ، وتحويل كل تباين ونقله إلى ميدان خلاف جوهري يتم من خلاله الخلط بين ما يعبر عنه في الفكر الإباضي بمسائل الدين ومسائل الرأي ، أي المسائل التي لا يجوز فيها الخلاف مما أدلته قطيعة الثبوت والدلالة ، والمسائل التي يجوز فيها الاختلاف مما أدلته ظنية الثبوت أو الدلالة . بل الأمر أعقد من ذلك حين يحول الحوار في أمور تاريخية أو فكرية عامة أو حتى أمور عادية في حياة الناس وأحيانا قضايا إعلامية إلى خلافيات حادة بين الناس .

ومن ذلك عدم تحديد مواطن الخلاف وهو ما يسمى بتحرير موضع النزاع ، هذا في واد وذاك في واد آخر . ومن ذلك عدم تحديد منطلقات الحوار التي يبنى عليها المختلفون مسلماتهم واختلافاتهم ، ولهذا كثيرا ما نجد الإلزامات المتوهمة . ومن ذلك إدراج شبكة المعلومات ضمن المواطن الصحية

للخلاف ، في حين أنها في كثير من الأحيان معركة بين أوراق متطيرة في
مهب الريح لا يدري من أرسلها معها ولا أين تهوي بها ، ما لم يتم توضيح
الحقائق بشكل من الأشكال .

2-وفي الجانب المعرفي : نجد الفوضى الفكرية العارمة ، فالجميع يناقش
ويحاور ويجادل ويستدل ويحلل ، من باب حرية الرأي وفتح باب الحوار على
مصراعيه ، ولا يتم استيعاب الفرق بين الأحكام الخاصة والآراء العامة .
وتبسط مسائل الدين والاقتصاد والسياسة حرة بين الناس في معادلة كمية لا
نوعية ، شأنها شأن الديمقراطيات التي يقرر فيها الكثرة مصير القلة ، فيما
المنهج القرآني - حسب رأي الخاص - يتيح أحيانا وفي قضايا مفصلية ، أن
تقرر القلة التي تفكر بعقلها الواعي - إن وجدت الشرعية لذلك - عن الكثرة
التي تتحرك فيها كوامن العقل اللاواعي .
ومن ذلك إطلاق الأحكام الخطيرة التي يترتب عليها سفك الدماء وإهانة أمم
بأكملها اعتمادا على روايات أو أقوال على حساب الثوابت القطعية من
الكتاب العزيز والسيرة النبوية كحرمة الدماء والأموال والأعراض .

3-وفي الجانب الوجداني : نفتقد في أغلب الحوارات الحس الأخوي
الإيماني الناصح الحريص على الخير وحب الصلاح ، ونحوها الأحكام
والتهمة الكثيرة بالتزوير والكذب والهوى واقتطاع النصوص وتحميل عبارات
المخالفين ما لا تحتمل وشيوع سوء الظن .

4-أما اللغة : فحدث ولا حرج عن اللفظ الكثير والسخرية والاستهزاء

بالآخرين والألفاظ المقذعة والسباب والشتائم التي تنزل بعض الأحيان إلى مستوى سوقي مبتذل كالقذف وشتيم الأعراض.

يتخلل كل ذلك معركة أخرى خطيرة ، وهي معركة المصطلحات الشاملة لجميع هذه الجوانب ، حيث تم احتساب هذه المعركة على ميادين الصراع الديني لحسابات متعددة ، حسابات إيمانية (مذهبية) وسياسية واجتماعية ، ليتشكل على أساسها العقل المسلم .

.....

يا أمة القرآن

غياب المنهج القرآني عن أمة القرآن في كيفية التعامل مع الناس من عجائب الأمور في هذه الحياة . ثمة نصوص قاطعة لا تحتمل الجدل ، وليست خافية لكي نبحث عنها أو غامضة لكي تحتاج إلى عناء فهم عميق ، أكثر المتحاورين والمتواصلين يغفلون عنها ولا يعيرونها اهتماما ، مع أنها في صميم الدين وفي جوهر العلاقات الإسلامية:

1- في عد الوحدة الإسلامية إحدى فرائض الدين الكبرى " : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . "

2- في ضرورة إدراك نعمة التآلف " : واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم . "

3- في ضرورة إدراك سعي الشيطان لإثارة العداوات " : إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء . "

- 4- في النهي عن إثارة الفتن والخصومات : والفتنة أشد من القتل.
- 5- في شمول الدين لجميع أطرافه : إن هذه أمتكم أمة واحدة.
- 6- في النهي عن التساهل في إخراج الناس من الإسلام : ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا.
- 7- في تضيق نطاق الخلاف والفرقة : ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا.
- 8- في ضرورة الإصلاح وتجاوز الخلاف وتناسيه : إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم.
- 9- في التركيز على المشتركات وعوامل اللقاء : تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله.
- 10- في ضرورة الحوار الإسلامي مع المخالفين ولو كانوا خارجين عن الإسلام (من أهل الكتاب) : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن . "
- 11- في الهدوء وترك التشنج في الحوار : بالتي هي أحسن.
- 12- في النهي عن الظلم والاعتداء على الآخرين والبغي عليهم بأي شكل من الأشكال : ولا تعتدوا . "
- 13- في التعامل مع الأخبار وضرورة تمحيصها : إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة . "
- 14- في التوقف عما لا يعلمه المرء وإعطاء الاحتمالات : ولا تقف ما ليس لك به علم . "
- 15- في احترام الآخرين : لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم

ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم." **16- في حفظ اللسان** : ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيا أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه."

17- في النهي عن إطلاق الأحكام وتجنب الخوض في معركة المصطلحات : "ولا تنازروا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون."

18- في النهي عن سوء الظن والنهي عن فهم كلام الآخر وفق الأفهام الخاصة والأحكام المسبقة وتحميل أقواله ما لا تحتل : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، "لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين."

19- في الرفق بالآخرين والرحمة بهم : بالحكمة والموعظة الحسنة ، "فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك."

20- في النهي عن التعميم في الأوصاف والأحكام وضرورة اتخاذ الاستثناءات حتى ولو كان الآخرون مشركين : ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما" _ "الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم."

21- في التمييز بين أصناف المخالفين : لتجدن أشد الناس عداوة للذين

آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى."

22- في النهي عن اتهام الناس بالباطل " : إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم."

23- في الحرص على سمعة الآخرين من الموافقين والمخالفين " : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة."

24- في النهي عن المساهمة في الإشاعات " : إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم."

25- في عدم استصغار قذف الناس بالباطل " : وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم."

26- في النهي عن تزيف الحقائق وتحريف النصوص " : يحرفون الكلم عن مواضعه."

27- في الأمر بالعدل التام والنزاهة مع الناس " : كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين."

28- في النهي عن ظلم الخصوم " : ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا."

29- في النهي عن الدفاع عن الموافق ومحاباته إذا ظلم المخالف ولو كان مشركا " : ولا تكن للخائنين خصيما " ، "ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم."

30- في النهي عن التنصل من المسؤوليات ورميها على الأبرياء ولو كانوا أعداء " : ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاناً وإثماً

مبيناً ."

31- في النهي عن سفك الدماء : من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل

الناس جميعاً ."

هذه قواعد قرآنية للتعامل مع الناس مؤمنهم وكافرهم ، إغفالها انحراف عن الصراط السوي واتجاه إلى الظلم والعدوان . وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه الشريفة تأكيد واضح لهذه القواعد . كما أن في سيرته العطرة التطبيق الأمثل لها بنماذج متعددة.

منهجية الحوار

يتعلق بالحوار أربعة أسئلة منهجية : متى يبدأ الحوار؟ كيف يجري الحوار

وتقدم الحقائق؟ متى ينتهي الحوار؟ ماذا بعد الحوار؟

متى يبدأ الحوار ؟

الحوار حاجة بشرية لاستيعاب الرأي الآخر من خلال شرح وجهة النظر دون وسيط ، وذلك بالتلقي المباشر لحقيقة الرأي ودليله خاليتين من عوائق الطريق ومن كل احتمالات الخطأ ، وحينئذ تنتفي فراغات كثيرة:

1- فراغ الأحكام المسبقة : المبنية على المعلومات الأولية المحتاجة إلى

تحديث .

2- فراغ النقل الخاطئ : تجنباً لزيادات الرواة.

3- فراغ السمع الخاطئ وغفلة العقل أثناء سماع الآخرين .

4- فراغ الفهم الخاطئ والأوهام الخاصة في تفسيرها لكلام الناس .

5- فراغ الحكم الخاطئ : إثر هذا التصور المشوه للأشياء .

6- فراغ الشائعات : التي عادة ما تفتقر إلى المصدقية والثبت ، والتي

تساهم بشكل مباشر في ترسيخ الأفكار غير الصحيحة عن الناس من خلال

تهيئة جو نفسي يضغط على العقل الواعي. هذا إذا استثنينا الفراغ الأوسع وهو الكذب الصريح حين يكون الناقل من الذين يخبو فيهم الضمير أحيانا أو دائما لصالح الأغراض الشخصية ، وحسب الوصف القرآني فالناقل في هذه الرواية "فاسق" خرج عن الفطرة السوية وخرج عن مقتضى الإيمان. في جميع هذه الحالات يكون الحوار إحدى ضرورات اللقاء للوصول إلى الحقيقة. وإدراك الحاجة لاستيعاب الآخرين وسد جميع هذه الفراغات يشجع على الرغبة لمشاهدة الأشياء طبيعية من غير أن يجري عليها تعديلات. كل نقل صادفه واحد من هذه المطبات فنتيجته خاطئة أو مشوهة أو ناقصة حتما ، والحوار يتجاوز جميع هذا المراحل الخطرة ، ويقدم الحقائق – وإن قدم زمنها – طازجة من غير أن تشوبها أو تشوهها أغراض ليست من مقصود صاحب الفكرة الأصلي.

قبل بدء الحوار هناك عاملان رئيسان ومهمان ، أحسب أنهما يشكلان النسبة العظمى من الوفاق والوصول إلى الحقائق بشكل انسيابي محفوف بالطمأنينة:

الأول : التوافق النفسي:

كيف يتم اللقاء والقلوب مشحونة بالغيظ والسخط مليئة بالنفور ، مدفوعة بالتحدي وحب الانتصار ؟!

يجب أن تكسر الحواجز النفسية التي تحول دون الرؤية السليمة للأشياء والأفكار.

يجب أن تهدأ النفوس عن هذا الفوران ، وتحلى بالسكينة والهدوء ، وتبتعد عن إقصاءات معلنة أو مبطنة . وهذا شيء مما تؤكد عليه آيات قرآنية متعددة

وتسميه "الهوى" . يجب أن تتخلص النفوس من الهوى ، الذي يظهر في أشكال متنوعة من الغضب والإثارة والهجوم بغير حق . وهنا تظهر صورتان عجيبتان:

—حقائق تقدم بأساليب من العنف

—وأباطيل تقدم بعبارات رائعة خادعة

كلتا الصورتين مباينتان للحكمة ، وتعكسان ضعف الوداع النفسي ، والنتيجة هي مزيد من الشقاق والشحناء . إن هدوء الأرواح والبعد عن الإثارة يساهم كثيرا في نجاح أي حوار ، ولعل التواصل الاجتماعي جزء من تواصل الأفكار ، أما الحوارات عن بعد فتساهم في بعد المسافة الفكرية بين المتحاورين .

الثاني : التقارب المعرفي:

التقارب المعرفي بين الخصوم عند الحوار والمناظرة أمر يحقق العدالة والنزاهة ويعادل كفتي الميزان ، والتكافؤ الفكري يؤدي إلى التكافل الفكري بدلا من ازدياد الخصومة ، لأن العلم رحم بين أهله يتعارفون بسببه ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه .

أما إقحام الجميع أنفسهم في لجج اللجاج فينافي الحكمة ويذهب بوقار العلم ، وربما قلل من شأن الإنسان إذا أظهر نفسه بطلا في كل الميادين دون مبالاة بعقول المراقبين من الحكماء والعارفين .

ثمة أساسيات ومستويات من الفهم والاستيعاب لا تتحصل للجميع ، ولا تنهيا في كثير من الأحيان إلا للمختصين في شأن ما ، جراء الخبرة وكثرة الممارسة لعلم من العلوم وكثرة القراءة فيه . من الصور المشاهدة أحيانا أن يطلب شخص مغمور الحوار والمناظرة مع عالم كبير له قدره ووزنه العلمي المشهود! هل السكوت عن هذا المطلب الساذج إلا عين الحكمة والصواب

!

ادعاء العلم أو الشعور بالأهلية العلمية في مثل هذا الموقف لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب الجهل الحقيق صاحبه بقوله تعالى : " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ."

وهنا يقال : " ناظرت عالما فغلبيته ، وناظرني جاهل فغلبيني ! " ذلك أن الجاهل لا يحسب حسابات المسؤولية العلمية ، ويسهل عليه التنصل والانتقال من فكرة لأخرى قبل تمام المقصود ، كما أنه لا يدرك الفرق بين الحقائق وبين الافتراضات والشائعات والسفسطة ، ولا يعتني بآليات الحوار وآدابه ، ولا يكثر كثيرا بالنتائج ، فيصعب على العالم الذي أكسبه علمه عقلا وحكمة التعامل مع الجاهل وإقناعه حتى بالبدهييات أحيانا ! حين يكون أحد الطرفين عالما والآخر جاهلا يكون الولوج إلى الحوار خاطئا كما تكون النتيجة سلبية !

ومقاييس المعرفة والعلم ليست عائدة إلى وفرة المعلومات ، ولا الجهل يعود إلى نقصها ، بل التحلي بالعقل وحسن السمات ، والفهم للأمور وتمييز قضايا المعرفة ، وصدق احترام العلم ، هي أولى سمات المعرفة والعلم . كما أن تصور الأشياء على حقائقها يؤدي إلى سلامة النتائج والأحكام كما قيل : الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

خذ مثلا قوله تعالى : " ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ."

لم يفدهم علمهم بالظاهر من الحياة الدنيا عقيدة وسلوكا ، فلم يحسب ذلك من ميادين العلم الحقيقي ، لأنه يتبدد في النهاية . ومتى ما خلا الحوار من

هذه القيم فلا تشفع وفرة المعلومات لتوجيه سير الحوار إلى مساره الصحيح

مآلات الحوار:

ثمة شيء آخر يدخل في صلب الأمر عند التفكير في إجراء حوار يتعلق بالقضايا الحاسمة ، وهو النظر في المحاذير المكتنفة للحوار ونتائجه ، والمآلات السلبية على العلاقات والصلات والفرائض التي قررها ديننا الإسلامي الحنيف التي من بينها فريضة الوحدة بين فئام الأمة الإسلامية.

كما أن عرض الحقائق أحيانا أجدى من الدخول في حوارات لا تنتهي أو تنتهي بخصومات ويكون ضررها أكثر من نفعها ، وليس كل شيء يتم النقاش حوله . ثمة وسائل متنوعة للإقناع ، فقد يكون الصدق العملي خير برهان على صدق المبدأ ، وقد كان أول برهان على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم صدقه وأمانته في تعامله مع الناس ، وكم دخل الناس في دين الله سبحانه وتعالى أفواجا لما اجتذبهم من أخلاق المسلمين وسمو أنفسهم . كما كان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يعرض القرآن الكريم على المشركين المعاندين دون الدخول في جدال معهم.

إن ظهور المرء وتبدي الفكر على مشهد متكامل وواضح وصادق كفيل بتجلية الحقيقة للناس ، وروعة الفكر تظهر للعيان حين يتجسد سلوكا وعملا

وقضايا الإيمان ركائز في النفس والفطرة ، وليس شرطا أن تقام الدلائل العقلية على صحة الإيمان ، فقد يكون من المهم إثارة كوامن النفس لفتها إلى

الحقائق المغروسة فيها المطموسة بمؤثرات البيئة المتنوعة.

قد يتمرد عقل الإنسان فينكر أكبر حقيقة وأوضحها في الوجود ، وهي حقيقة وجود الله سبحانه وتعالى ، وقد ألف بعض الملحدون المنكرين لله كتباً في ذلك في حوار عقلي فلسفي لإلغاء هذه الحقيقة ، مع أن الإيمان بالله لا يحتاج كل هذا العناء ، حيث المسألة من بدهيات التأمل في هذا الكون البديع..

كيف يجري الحوار وتقدم الحقائق ؟

كل ما سبق من القواعد القرآنية أسس ضرورية للتعامل بين المتحاورين سواء في اللغة أو المنهج أو الناحية العلمية ، وتكوين قاعدة وفاق موحدة بين المتحاورين هو أساس الحوار ، فلا بد من بيان المسلمات للاتفاق عليها ، وعدم الوضوح في هذا الجانب سيؤثر على سير الحوار ، وكل خلاف فيها بأي شكل من الأشكال ينبغي أن يحسم من البداية.

وقد لخص القرآن الكريم سمات الحوار اللفظي في آية قرآنية بديعة ، وهي قوله تعالى : "ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بأمر ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء."

انظر كيف تفعل الكلمات فعلها في النفس!

للكلمة الطيبة ثمار تؤتي أكلها بين الحين والآخر ، بمعنى أن نتائجها تستمر على المدى البعيد ، لكن من ذا الذي يثبت على حسن القول والكلمة الطيبة؟ !المؤمنون يشتهم الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة! فقدان هذا المنهج الحميد فقدان لمظهر من مظاهر الإيمان ، ويؤدي إلى خطورة بالغة أحيانا!

شهدنا أحيانا نماذج من الكلمة الخبيثة : القدح في الأعراض ، والتهم الباطلة ، والأحكام الجائرة ، التي سفكت الدماء ومزقت المجتمعات وهددت كيان المنظومة الإنسانية في الإسلام ، بما يبدية أتباع هذا الدين من التناقض بين المبدأ وبين الممارسات في التعامل مع الآخرين.

الرجسية في المتحاور والغلطسة في لغته يفقدانه شرعية مفاهيمه ومضامين حديثه . كما ينزعان عنه مبدأ قبول الحق وتقبل الرأي الآخر أو الاعتراف به أو حتى مجرد احترامه.

على المحاور الصادق أن يكون واقعيا في طرحه من غير أن يمارس على الآخرين أساليب من الخداع مؤثرة على صدق الحقائق لصالح قناعاته الشخصية .ولا مانع من استجلاب القناعات والتجارب الخاصة لتكون تدعيما لرأيه وموقفه على ألا يقدمها مسلمات وإلزامات . والاعتراف بمعارف الآخرين وتجنب إقصائهم من أدب الحوار ومسلماته.

.....

ثمة قدر متفق عليه بين العقول وإن اختلفت انتماءاتها المكانية والزمانية ،

وانتماءاتها الفكرية أيضا ، تشترك في تقريره وتصنيفه في قائمة الحقائق.

استعمال المنطق وخطاب العقل بشأنها أمر طبيعي وضروري أحيانا.

والاختلاف في المساحة المتبقية شيء طبيعي بين البشر تفرضه عليهم

طبائعهم وتمليه مكتسباتهم التي قد تخرجهم أحيانا عن مقتضى الفطرة

السليمة ، التي فطر الله الناس عليها ، في جوانب الإدراك والإحساس

والسلوك.

الإنصات إلى الناس وحسن الاستماع إلى المخالفين من آليات الحوار

الناجحة ، اقرأ قوله تعالى : "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى

السمع وهو شهيد."

إلقاء السمع تعبير بديع عن الإصغاء وحسن الاستماع ، مع القلب الذي يعبر

عن مناط التدبر بمجموع الإدراك والإحساس ، والشهادة على ما يجري بما

يتطلبه ذلك من ملكات الوعي ، يوحى باتزان فكري وروحي وسلوكي يشكل

لدى ذاكرة المتلقي مشهدا حيا وصورة باقية تتردد عند الحيدة عن الحق.

"فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" ، أيضا يبسط في النفس

معنى الإصغاء وترك التعجل الذي تميل إليه النفس ، لأن التأني من لوازم

الحكمة والعقل للوصول إلى خاتمة عاقلة. وفي قوله تعالى : "فلما حضروه

قالوا أنصتوا" اختزال لهذا الحس الفكري الناضج في التعامل مع الأفكار.

ثمة أمر إجرائي مهم أيضا ، وهو أن الجو العام إذا كان مشحونا بالضوضاء

ليس جوا صحيا للتفكير ، بل البيئة السليمة هي التي يقل فيها اللغط وتميل

النفس إلى الصمت والسكينة.

لقد بين الله سبحانه وتعالى أن التفكير إنما يكون أكثر عقلانية عند الخلوة بالنفس أو بالحوار الثنائي ، يقول عز وجل : "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا". وبناء عليه ، فالشغب الذي يثيره الأتباع لا يهيئ العقول لتقبل الآراء الأخرى أو لتفهمها.

هنا ينبغي أن نتحلى بهدوء النفس والسكينة وصدق المقصد بعيدا عن الأحاسيس الطائشة.

متى ينتهي الحوار؟

عندما يختل نظام الحقائق في الحوار ينبغي أن يدرك المتحاوران أن ذلك شروع في الحوار العملي الذي تتكلم فيه السلطة بدلا من الحوار ، بمعنى أن صراع القوة حل محل خطاب العقل.

هنا ينبغي أن يتوقف الحوار ، لأن الحوار لا سلطة ولا قوة فيه إلا للعلم والعقل بما يضمن حسن سير الحوار ، والقسوة ونحوها لا تكون ضمن آليات الحوار للوصول إلى نتيجة موحدة ، بل هي انتقال إلى مرحلة أخرى من آليات الصراع حول الحق ، ليس الحوار معنيا بها.

وإذا بدا أن الآليات غير سليمة أصلا ، وفقدت الأسس الصحيحة من البداية فيكون من باب أولى الانتباه إلى أن البيئة غير صحية ، لأنها لا تمتلك أدوات النجاح ما لم يتم تدارك الأخطاء في الوسائل قبل الحديث عن معالجة الأخطاء في الموضوع الأصلي الذي يدور حوله النقاش.

إذن فالتعريض على عامل اللغة وحده ، أو إنكار الحقائق بلغة العلم والعقل والخروج عن مسلمات الفطرة وثوابت الدين ، أو بدء إصدار الأحكام أو اللجوء إلى الكذب وافتعال المواقف أو اللجوء إلى التهديد والوعيد من منطلقات سلطة معينة ، ليست من آليات الحوار ، بل هي تصعيد للخلاف. قد يعكس كل ذلك ضعف الحجة والبرهان ، وقد يعني بعضها - باستثناء افتعال الأباطيل وإنكار الحقائق - أحيانا مدى القوة في التمسك بالرأي ، كما قد يدل بوجه من الوجوه على السخط من موقف المخالف الراض لقبول جميع النتائج التي تمت البرهنة على صحتها.

عند انتقال الحوار إلى مثل هذه المصادمات ، من إنكار البراهين والالتفاف على صدق الحقائق ، والتذرع بسلاح اللغة فقط ، ينبغي أن يتم الالتفات سريعا إلى أن مناقشات أخرى بدأت تدخل في الأجواء.

في كتاب الله سبحانه وتعالى الكثير من نماذج الحوار مع الأقوام المكذبين والجاحدين ، وفي الكثير منها بيان أن أمثال هؤلاء قلما يسلمون بالرسالات مع الآيات الباهرة التي تؤيد الرسل.

من كلام المولى سبحانه : "ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك" ، "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم".

والإعراض عن مثل هؤلاء المنكرين للحقائق قد يكون في موقف ما خيرا من مواصلة الحديث.

استمع إلى قوله تعالى : "وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله

يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

ماذا بعد الحوار؟

مجال الحوار هو بيان الحقائق والدعوة إليها ، والذين يتكلمون عن نسبية الحقائق إنما يتكلمون عن نسبية الأدلة والبراهين عليها ، والغاية المنشودة من الحوار هي إقناع الآخرين ، أو ما نسميه بالوصول إلى الحق.

وتفاوت قدرات الناس ومواهبهم ووسائلهم في الإقناع ، والحقائق لا تعود إلى مدى القدرة على إثباتها ، كما ورد في الحديث النبوي الشريف : "ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض . ولذلك فالإقناع ليس من لوازم الحوار كما يبدو لي ، فقد لا يتم الوصول إلى وفاق عقلي تام أو حتى جزئي.

ومعنى ذلك أن السير السليم للحوار هو أهم إنجاز يحققه المتحاورون ، دون شرط الوصول إلى التسليم بقناعات الآخر.

ففي كتاب الله سبحانه وتعالى : "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. "

وليس شأن المحاور أن يرغب الآخر على تبني أفكاره وآرائه ما التزم الصدق وتحلى بروح الحوار.

والنتيجة التي أريد تقريرها هي أنه ليس من مسؤولية الحوار أن يصل بالمتحاورين إلى اتفاق على النتائج ، بل هو ترسيخ لأدوات الحوار ورسم خطة التفكير للإنسان في حياته.

ومع كل ذلك ، يقول الله جل ذكره : "فبشر عباد الذين يستمعون القول
فيتبعون أحسنه "، فاتباع الحق منهج للسلوك الإنساني السوي ، وصاحبه
موفق ناجح يستحق البشرى من الله سبحانه وتعالى .

لكم إخوتي جزيل الشكر والامتنان على متابعتكم وصبركم ، آملا أن تمدوني
بملاحظاتكم الكريمة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
كتبه/ ناصر بن سليمان السابعي .